

بعد شقاء، وراح أبو العاص يغمر زوجه زينب بالحب والمودة، فوجدت بنت الرسول لقاء أبي العاص بعد الفراق غالبا. وإن شق عليها أن تكون في مكة وأبوها في المدينة، وغدا محمد مبتهجا بعودة أبي العاص إلى بنته زينب، مسرورا بإيمانه وإذعانه للحق.

وشاق الرسول بعد حين أن يرى زينب بعد غيابها عنه في مكة، فأرسل إليها من أهله من يأتيه بها إن لم يستطع أبو العاص أن يصحبها، وإنها لفي طريقها إلى يثرب وركبها يخب بها في عرض البيداء، إذا نفر من قرش بمن مردوا على طاعة الرسول واعتصموا بكثبان الرمل للعداء والإيذاء، يقطعون الطريق على ركب زينب، وكان في أولئك الأعداء الأشداء هبار بن الأسود، فلما علم أن في الهودج بنت الرسول، لم يتحرج من اقتحامه، فاستحکم الرمية ونخس زينب برمحه ففزع ظهرها وكانت حاملا.

وذعرت بنت الرسول وارتاعت حين وقعت وأريق دمها، فحملوها إلى بيوت بني عبدمناف بين مكة والمدينة، وهي تتحامل على نفسها فقد أسقطت حملها، وخذلها ضعفا.

فيا فجيعة محمد في بنته زينب حين بلغه الخبرا ويا لوعة أبي العاص حين لحق بها من مكة، وكان يعرض أنامله غيظاً ويود لو يحرق البيداء على ابن هبار الذي غيبه الفرار وأخفته الرمال.

وبقيت زينب تتقلب في مضاجع السقام خاوية الجسم مكروية النفس، وكيف يقوى جسمها الموهون الذي أسقمته الخطوب وأضنته البيداء، بين مكة والمدينة في الحل والترحال منذ هاجر أبوها ومنذ فارقت أبا العاص، وكسأن تلك الرمال الرمضاء كانت ظمأى لاهبة. فألت أن لا ترتوى إلا بدم زكى من آل الرسول.

كانت زينب ربحانة لمحمد وروحاً لأبي العاص، فذوت تلك الريحانة وفاضت تلك الروح إلى بارئها تشكو ظلم الإنسان فحزن الرسول عليها وبكاها،